ارهاصات فى الجزيرة

قبيل البعثة المحمدية

للأستاذ الطاهر أحمد مكى

— ١ —

كان الاعتقاد السائد حتى القرن الثامن عشر ، أن الحركات الإصلاحية وليدة العبقرية الفردية ، فهى مدينة بوجودها لهم ، ومتوقفة فى بقائها عليهم ، وعلى مقدار ما يوجد من عباقرة ، يتوقف سير الحياة أو يندفع ، وتبطىء عجلة الزمن أو تسرع ، ويشعر مكان القيادة أو يملأ ، حتى إذا جاء دوركايم : حطم هذه النظرية ، وأقام على أنقاضها صرحاً سامقاً لنظرية أخرى ، وصنع من أشلائها مذهباً عالياً لرأى أقوى ، يرد كل ظاهرة فى المجتمع إليه ، وينسب كل رقى إلى تفاعله ، ويجرد الفرد من سلاح الخلق والابتكار ! ...

وهو مذهب حرى بأن يقف الإنسان عنده طويلا ، وأن يتملى حقائقه مليا ، فسيقوده فى رفق إلى مواطن الخفاء فيما نجح من دعوات فبقى ، وما فشل من مذاهب فتلاشى ؛ وما صلح من أديان فخلد ، ويرد كل نتيجة إلى أسبابها ، وكل ظاهرة إلى عللها ، وما الفرد إلا أثر لمكانه وما اتصل به ، ولزمانه وما استتبعه ، ولبيئته وما اعتمل فيها ! ...

فعلم الاجتماع الحديث يقرر أن الظواهر أيا كان نوعها ، من خلق المجتمع وليست من صنع الفرد ، وحقيقة أى مجتمع لا وجود له بدون أفراده ، ولكن من تجمع هؤلاء واحتكاكهم ، ينشأ شىء يختلف كل الاختلاف عن خواطرهم الفردية ، وقد يبدو غريباً أن ينشأ من اجتماع عناصر ما ، حقيقة خارجة عنها فى عالم المعانى ، ولكنها فى عالم الطبيعة أمر ظاهر ومألوف ، « فكما أن الخلية الحية لا تحتوى على شىء آخر غير الجزئيات المعدنية ، كذلك لا يضم المجتمع شيئاً غير الأفراد ، ومع ذلك فإنه من المستحيل بداهة أن تحتوى ذرات الإبدروجين أو الاكسوجين أو الأزوت أو الكربون على الظواهر المميزة للحياة ، وبناء على ذلك فلا يمكن إلا أن تتخذ الحياة المادة الحية بأسرها مستقرا لها ، فهى توجد فى الكل ولا توجد فى الأجزاء ... وحينئذ فليس لنا إلا أن نطبق هذا المبدأ على علم الاجتماع » (١) لأن ما هو ممكن فى عالم المادة ، فهو فى عالم الأناسى أمكن ، حيث الأفكار تتفاعل ، والنظرات تمتزج ...

وما أناقش مذهباً رست دعائمه ، وتوطدت أركانه ، أو أن أشرح طرائقه ومناهجه ، أو أصوغ قوانينه وقواعده ، وإنما أعرض لموقفه من الدين ، فهو عندهم ظاهرة اجتماعية وإن جاء به الوحى ، وأثر أرضى وإن نزل من السماء ، وخلق جمى وإن نهض به رسول ، ما دام المجتمع قد أخذ به ورضيه ، وأخلد إلى أوامره وسكن إلى نظمه . ولن يستقر دين فى مجتمع ما ، إلا إذا انسجم مع طبيعته ، ووافق رقيه الفكرى وتطوره الاجتماعى ، وكان ممدا لساعه ، متطلعاً لأحداثه ، فالرسل مترجون من حالة ، المجتمع مهيأ لقبولها ، يفهم مظهرها ، ويستسيغ حقائقها ، ويرنو إلى مثلها العليا . ولأمر ما ، كان الرسول بشرا ، يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق !

« إن الدين لون من ألوان التعبير الإنسانى عن العواطف

---

(١) E.D, wrkeim les Régles de Methode Sociologique p 10 نقلا عن « النطق الحديث ومناهج البحث » للدكتور محمود قاسم ص ٢١٠

فراقك خطب منه بين جوانحى سهام بصاب الحزن والسهد تغمس
ولكن حمل الذل موت وعاره إزاء عواديه يضيع التحرس
وإلا فلا تبكى على فانى أموت قرير العين بالعز أهجس

وإليكم هذه القطعة القوية منتزعة من إحدى قصائده العامرة بالقوة

وما من أمة فى الأرض لت بغير السيف حقا بات يذرى
وليس ينال الاستقلال إلا إذا سالت دماء القوم نهرا
وشعب يبتغيه دون جد لشعب سادر ما زال غرا

محمد الحسينى

والميول والمثل العليا ، وإن هذا اللون من ألوان التعبير متصل أشد الاتصال بأمزجة الأفراد والأمم ، ممثل لها تمثيلا صادقا قويا ... وهو طريق من الطرق التي تسلكها الإنسانية الى الجمال والحق والمثل العليا » (١) ومن ثم تعددت الأديان ، لا بتعدد العصور وحدها ، وإنما بتعدد الأمكنة أيضا ، لأن دينا ما ، قد ينهض في موطن ويكبو في غيره ، وقد يثمر في مجتمع ويجدب في سواه ، فالدين الإسلامي مثلا ، وقف عند حدود معروفة ودول معلومة ، ورغم الجهود الجبارة التي بذلها المسلمون في اجتياز هذه الحدود ، لم يكتب لهم النجاح ، ولم يقدر لهم التوفيق ، على حين أن هناك أماكن انتشر فيها بطبيعته ، ولم يجد صعوبة ما في أن يتثبت فيها وأن يقوى ! ...

وأنا وأنت وغيرنا ، هل كان لنا فضل في اتخاذ الإسلام دينا والإيمان به عقيدة ، أم تراثا خرجنا إلى الحياة ، فوجدنا آباءنا كذلك ، فتابعناهم وسايرناهم وسلكنا نفس الطريق الذي يسلكون ؟ ... هل استطاع أحد ما ، مسلما كان أو مسيحيا أو يهوديا أو حتى بلا دين ، أن يصطنع الجدة ساعة ، فرأى المتابعة كسلا ، والتقليد خمولا ، والإذعان ضعفا ، فنقب وبحث ودرس وقارن ، وانتهى إلى عقيدة غيره ، يؤمن بها لأنها حق ، ويخضع لها لأنها صواب ؟

إنما نحن أسارى المجتمع « فالطفل حين يدخل العالم لا يحمل معه سوى طبيعة بيولوجية ، غير خلقية أو اجتماعية ، تستطيع أن تتكيف بجميع الهيئات والأشكال ، فهو لا يختار لنفسه لغة دون أخرى ، أو ديانة دون غيرها ، بل هو المجتمع الذي يضطره إلى اتباع الديانة التي يشب عليها ، أو اللغة التي يتكلم بها ، والواحد من ساعة نشأته يؤلف جزءاً من مجتمع له تعاليمه وأخلاقه ولغته وديانته وفنه وعاداته وتقاليده وتاريخه وأنظمته وخرافاته ومثله الأعلى ، ولابد له من التقيد بهذا الميراث والعمل به » (١)

هذا هو رأى علم الاجتماع في الأديان ، وقد اهتدى إليه قوم يدرسون المجتمع كما هو ، لا يطيرون مع الملائكة ، ولا يعطون أجنحة الخيال ، ولا يركبون متن الفرض ، ولا يجهدون إزاء الحق ، ولا تعميهم المثل العليا عن واقع الحياة ...

وفي ضوء هذا العلم ، وعلى هدى منه ، نريد أن نستكشف حال الجزيرة العربية قبيل البعثة المحمدية ، لنتفهم حالها ... أجاء الإسلام فصار بها إلى غير ما أحبت ، وساقها إلى غير ما هويت ، ونقلها من حال كانت فيها ، إلى حال لم تكن تريدها ؟ أم أن تيار الحوادث ؟ كان ينبئ بما سيتمخض عنه الغد ، وما سيحمله المستقبل ، وما ستأتي به الليالي في قابلها القريب أو البعيد ؟ ...

« للكلام صلة »

الطاهر أحمد مكي
كلية دار العلوم ـ جامعة فؤاد الأول

(١) علم الاجتماع الديني ، يوسف ياسين شلعت ص ٩

(١) لشاعر الهند طاغور : نقلا عن مقال لمحمود المنجوري بمجلة « الحديث » ص ١٦٠ العدد ٤ سنة ١٦
٢٣ . ٣٦٠

وزارة الحربية والبحرية

ترجو تقديم عطاءات بديوان الوزارة لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم ١٧/٣/١٩٥١ عن توريد اللبن الحليب اللازم للكلية الحربية والمستشفيات العسكرية في المدة من مارس لغاية آخر يونية سنة ١٩٥١ وتطلب الشروط على ورقة دمغة فئة ثلاثين مليما من ادارة العقود والمشتريات بالوزارة مقابل ٢٥٠ مليما وأجرة البريد أربعون مليما

٧٧٧٣